

السّبق المنهجي لدى ابن خلدون من خلال توظيف أداة الملاحظة

لرصد الظواهر الاجتماعية

-قراءة في آليات التوظيف ورصد لأبعاد التنظير-

د/ نورالدين كوسة

جامعة سطيف

Résumé :

الملخص :

Cet article s'inscrit dans un cadre qui vise à cerner une problématique pertinente de la pensée Khaldounienne, à travers le suivi de certaines caractéristiques de la théorisation dans sa forme initiale, en faisant un arrêt sur la précession méthodologique chez Ibn Khaldoun à travers son utilisation de l'observation dans l'étude des phénomènes sociaux, et ce à partir des lectures et des analyses d'un ensemble de questions socio-culturelles concernant les sociétés maghrébines d'une manière plus spécifique, considérant que les idées qui apparaissent en feuilletant les *Prolégomènes* d'Ibn Khaldoun nous mènent à marquer un arrêt sur une somme de données qui peuvent nous convaincre que ce dernier est un pionnier dans l'utilisation de l'observation que nous pouvons considérer parmi les outils de recueil de données les plus connus, et dont l'utilisation est recommander dans les études sociologiques et anthropologiques par les plus grands théoriciens contemporains.

يندرج هذا المقال ضمن سياق السّعي إلى مُلامسة إشكالية هامة ذات صلة بالفكر الخلدوني، من خلال رصد بعض ملامح التنظير في شكله الأوّلي، بالوقوف على السّبق المنهجي لدى ابن خلدون في توظيفه لأداة الملاحظة لرصد الظواهر الاجتماعية، وكذا في قراءاته وتحليلاته لجملة من المسائل السّوسيو ثقافية في المجتمعات المغاربية على وجه الخصوص، على اعتبار أنّ تصفّح ما ورد في مقدّمة ابن خلدون من أفكار يقودنا إلى الوقوف على جملة من المعطيات ذات الصّلة بسبق هذا الأخير في توظيفه لأداة الملاحظة

-l'observation- باعتبارها من ضمن أشهر أدوات جمع البيانات، التي يوصي كبار المنظرين المعاصرين في الدّراسات الاجتماعية من علم اجتماع وأنثروبولوجيا بتوظيفها.

مقدمة

يسعى هذا البحث الموسوم "السبق المنهجي لدى ابن خلدون من خلال توظيف أداة الملاحظة لرصد الظواهر الاجتماعية"، إلى مُلامسة إشكالية هامة ذات صلة بالفكر الخلدوني، من خلال رصد بعض ملامح التنظير في شكله الأولي بالوقوف على السبق المنهجي لديه-ابن خلدون- من خلال توظيفه لأداة الملاحظة لرصد الظواهر الاجتماعية، وكذا في قراءاته وتحليلاته لجملة من المسائل السوسيوثقافية عبر فصول مقدّمته الشهيرة، على اعتبار أن تصفّح ما ورد في مقدّمة ابن خلدون من أفكار يقودنا إلى الوقوف على جملة من المعطيات ذات الصلة بسبق هذا الأخير في توظيفه لأداة الملاحظة- l'observation- باعتبارها من ضمن أشهر أدوات جمع البيانات، التي يوصي كبار المنظرين المعاصرين في الدراسات الاجتماعية من علم اجتماع وأنثروبولوجيا بتوظيفها، بحكم أن هذا النوع من الدراسات والأبحاث يتميّز بطابعه الكيفي.

حيث سنباشر هذا البحث بتبيان حدود سقف قراءتنا توظيف ابن خلدون للملاحظة في مقدّمته، ثم نعرّج على أهمية الملاحظة في البحوث الاجتماعية المعاصرة، دون إغفال استعراض السياق الفكري والحضاري لانبثاق الفكر الخلدوني، ثم ننتقل إلى مسألة جوهرية في البحث تتعلق بخلفيات وآليات توظيفه للملاحظة، وهذا بتناول أوجه وسياقات هذا التوظيف وفق صيغتين أساسيتين، وهما الملاحظة بشكل ضمني والملاحظة بشكل صريح، وتأتي محاولتنا لرصد أوجه وسياقات توظيفه للملاحظة وفق الصيغتين المذكورتين مقتصرة على جملة من القضايا التي لمسنا فيها توظيفه لهذه الأداة المنهجية بشكل لافت، وننهي هذا البحث بخاتمة نتناول فيها ما أمكن لنا الوقوف عليه من نتائج عبر عناصر هذا البحث.

1- حدود سقف قراءة توظيف ابن خلدون للملاحظة في مقدّمته:

لعلّ من ضمن خصوصيات الفكر الخلدوني من وجهة نظرنا كباحثين معاصرين تفصلنا عنه مسافة زمنية تزيد عن ستّة قرون، أنّ هذا الأخير قد وظّف عبر فصول مقدّمته منظومة منهجية تميّزت بانفتاحها على سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية وفق منطق تقسيم العلوم وتسمياتها في الزّمن الرّاهن، وهذا بالنّظر إلى ما تعجّب به المقدّمة من رؤى وأفكار ومواقف من خلال تحليله للظواهر الاجتماعية والثقافية والحراك السياسي

وما يُرافقها من أحداث ذات صلة بحياة المجتمعات المغاربية على وجه الخصوص بحكم انتمائه لها، غير أنّ هذا التوظيف المنهجي لا يمكن اعتباره بأي حال بمستوى نضج المناهج الحديثة وما تحوزه من بنية تقنية وخصوصيات إبستمية.

وإذا كان مقصدنا من هذا البحث هو رصد السياقات التي وظّف فيها ابن خلدون أداة الملاحظة في مقدّمته، فإنّ ذلك لا يمثّل مبرراً مقنعاً يجعلنا نتعسف في لّيّ نصوصها ومحاولة تطويعها بما ينسجم وهذا المسعى، ولعلّه من باب التجنّي على الفكر الخلدوني أو تقويل الرّجل ما لم يقل إن أدعينا في هذا البحث أنّ ابن خلدون قد وظّف الملاحظة بوصفها من أدوات المنهجية المعتمدة في البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية وفق ما تقتضيه التقاليد المنهجية المعاصرة.

فليس غريباً أن يلمس المتصفحّ لما كتّب حول الفكر الخلدوني في البلدان المغاربية على الأقل، استهجان بعض الباحثين لما يرد في كثير من الدّراسات والأبحاث - حول الفكر الخلدوني بشكل عام - من تأويلات وقرّاءات جانبية الحقيقة التي أرادها ابن خلدون نفسه، ضمن سياق محاولتها - أي تلك الدّراسات والأبحاث - تطويع أفكاره وإعطائها تأويلات في غير محلّها، بل بعيدة كل البعد عن المقصد الذي أريد لها وكذا عن النسق الذي صيغت لأجله، حيث يذهب الباحث التونسي خالد كشير إلى إبداء امتعاضه ممّا أشرنا إليه آنفاً بالقول "وتعدّدت التّوجّهات مطوّعة أفكار ابن خلدون لاستنباط ما يذهب إليه هذا الباحث أو ذاك حتّى قول الرّجل -يقصد ابن خلدون- ما لم يقل وما لم يخطر على باله البتّة..."⁽¹⁾.

وكان الباحث الجزائري عبدالقادر جغلّول قد لامس هو الآخر هذه الإشكالية حين أشار في دراسة حول ابن خلدون إلى موقفه الإنتقادي " ...تجاه التّفسيرات التي تجعل ابن خلدون رائداً أو جامعاً لمختلف التّيارات والقواعد المكوّنة للعلوم الاجتماعية"⁽²⁾، وفي نفس السياق يدرج الباحث المغربي سالم يفوت ملاحظته قائلاً " ذلك أنّ الدّراسات الخلدونية عودّتنا في أكثرها إلى الرّكون إلى التّمجيد والقفز بنصّ المقدّمة فوق العصور والتّاريخ...فهي دراسات انساقت وراء إغراءات المقدّمة وحملت المصطلح الخلدوني ما لم يحتمله كما أوهمت القراء بأنّ المقدّمة وليدة الفكر الحديث والمعاصر وعلم الأزمنة الرّاهنة"⁽³⁾.

ومن هنا فإنّ عملنا يندرج ضمن سياق استقرار تجليات هذا التوظيف لأداة الملاحظة وفق النسق المنهجي السوسيو أنثروبولوجي في الزمن الراهن، آخذين بعين الاعتبار تلك المسافة الزمنية الفاصلة بين زمن ابن خلدون والزمن الحاضر الذي نضجت فيه منظومة النظريات السوسيو أنثروبولوجية وتبلورت معالمها الأساسية، بما تتطوي عليه من أدوات ومقاربات، وهذا بمراعاة ذلك الاختلاف والتمايز بين السياق الفكري والحضاري لابن خلدون من جهة والسياق الفكري والحضاري المعاصر، وهو ما يلزمنا التعامل بحذر وحيلة شديتين مع عناصر هذا البحث وما يثيره من إشكاليات ذات صلة ببؤر التفكير والنقاش التي نهدف إلى رصد حيثياتها.

2- أهمية الملاحظة في البحوث الاجتماعية المعاصرة:

على اعتبار أنّ هذه المساهمة تهدف إلى مُلامسة بعض بؤر التفكير ذات الصلة بالتّظهير في مقدّمة ابن خلدون وذلك بتسليط الضّوء بالتّحليل والنّقاش على ما نعتبره سبقا منهجيا لدى هذا الأخير في توظيفه لأداة الملاحظة، فإنّه لا مناص من إثارة بعض المعطيات المرتبطة بأهميّتها-الملاحظة-في البحوث الاجتماعية المعاصرة ومن ضمنها علم الاجتماع والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص، من خلال تناول ما يتّصلب إشكالية موقع هذه الأخيرة - الملاحظة- ضمن النسق المنهجي باعتبارها من ضمن أشهر أدوات جمع البيانات، التي يوصي كبار المنظرين المعاصرين في الدّراسات الاجتماعية من علم اجتماع وأنثروبولوجيا بتوظيفها⁽⁴⁾، بحكم أنّ هذا النوع من الدّراسات والأبحاث يتميّز بطابعه الكيفي.

حيث سعت العلوم الإنسانية والاجتماعية خلال العقود الأخيرة إلى الاقتراب من الواقع ومحاولة رصد مختلف التحوّلات ذات الصلة بجوانب الحياة المختلفة للإنسان، فكانت هذه المساعي سببا في بعث جملة من المقترحات المنهجية ومن ضمنها أداة الملاحظة، وذلك بهدف أخذ معلومات كيميّة من أجل فهم المواقف والسلوكات⁽⁵⁾، ولهذا فقد أُعطيت لها مكانة أساسية في البحوث الأنثروبولوجية⁽⁶⁾، وإذا كان الأنثروبولوجيون هم أول من وظّف أداة الملاحظة من خلال عيشهم وسط المجموعات البشرية بغية دراستها عن قرب، فإنّ علماء الاجتماع أيضا قد وظّفوها كذلك - أي أداة الملاحظة- للتّقصّي أثناء دراساتهم للمسارات الفردية ضمن أوضاع معيّنة⁽⁷⁾.

ولهذا السَّبب فقد أُعْتِبرت الملاحظة من أشهر أدوات جمع البيانات التي تتدرج ضمن سياق المناهج الكيفيّة، وهي بهذا تمثّل مرحلة أساسيّة لا غنى عنها في البحوث الاجتماعيّة بشكل عام⁽⁸⁾، إذ تأتي أهميّة الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعي والأنثروبولوجي في كونها تحضّي بجملة من المزايا حيث تزوّد بمعطيات "... نابعة من داخل مجموعة الدّراسة"⁽⁹⁾، كما تمكّنه أداة الملاحظة كذلك من الحصول على مجموعة من المعلومات ومن المواد المعرفيّة المُراد الاشتغال عليها بطريقة تلقائيّة من مجتمع البحث، إلى جانب فهم الظواهر والممارسات التي هي محل اهتمامه بشكل يخلو من التصنّع والذاتيّة، من خلال الولوج بسلاسة إلى الفضاءات المجتمعيّة وتسهيل البحث في خصوصيّاتها الثقافيّة والاجتماعيّة، ومن جهة أخرى فإنّ الملاحظة تتيح للباحث كشف خبايا الظاهرة المدروسة في سيرورتها وديناميكيّتها وصولاً إلى اكتشاف ثوابتها ومتغيّراتها.

وبهذا فإنّ الواقعيّة التي تتميّز بها أداة الملاحظة جعلتها تحضّي بـ "مكانة فريدة ضمن البحث في العلوم الاجتماعيّة - من خلال فعل- إدراك الواقع المباشر وهو ما لا تسمح به معظم تقنيّات البحث الأخرى"⁽¹⁰⁾، "وهذا ما يُمكن أن يؤدّي تدريجيّاً إلى إدراك العناصر الجوهريّة التي يكون من الصّعب إدراكها لأوّل وهلة، وعليه يمكن استنتاج ظواهر قد تُقلّت من وعي الأشخاص موضوع الملاحظة أنفسهم، كما قد تؤدّي إمكانيّة التعمق في الوضع أيضاً إلى إبراز فرضيّات جديدة لم تكن نفكر فيها سابقاً أو تدقيق تلك التي تمّت صياغتها"⁽¹¹⁾.

3- السِّيق الفكري والحضاري لاتباق الفكر الخلدوني:

إنّ تصفّح مقدّمة ابن خلدون والتّمعّن فيما ورد فيها من رؤى وأفكار ضمن ثنايا فصولها يجعلنا نقف على جملة من الحقائق مّفادها، أنّ تلك الرّؤى والأفكار التي صاغها هذا الأخير لا يمكن عزلها بأيّ حال عن السِّيق الفكري والحضاري الذي عاش فيه، والذي كانت له تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على نسقه الفكري وعلى نظريته لمجتمعات عصره وبيئته التي عاش فيها، والتي يمكن اعتبارها بمثابة رد فعل مباشرة على جملة من الأحداث و الأوضاع المعاصرة له، هذه الأخيرة التي يتشّابك فيها الوضع السِّياسي بالوضع الاقتصادي والوضع الاجتماعي بالوضع الثقافي والديني.

ولذا فإنّ جزءاً هاماً من أفكار ابن خلدون الواردة في مقدّمته قد انطلقت من مقارنته للمجتمعات المغاربيّة التي عاش فيها، أكثر من مقارنته لمجتمعات غريبة عن نسقه الفكري والحضاري، وهي بهذا المنحى تتملّ تعبيراً صريحاً ينم عن قلق وهمّ فكري يعكس وعيه العميق بمشاكل مجتمعه من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ تلك الأفكار الواردة في مقدّمته تعكس أيضاً استجابته لاستفزازات مشاكل عصره وتفاعله مع أحداثها، حيث تنطوي على وعيه كمتقفّ نخوي بالتزاماته الأخلاقيّة تجاه بيئته الاجتماعيّة والثقافيّة بشكل خاص ومحيطه الحضاري بشكل عام.

فليس غريباً أن يشعر القارئ لأفكار ابن خلدون بجرعتها وعمقها في الإفصاح عن قناعاته، بما لا يدع مجالاً للشكّ في التزامه بقضايا عصره من خلال إحساسه بمشاكل مجتمعه بوصفه مثقفاً عضويّاً وفق طرح غرامشي، الذي يضيفي صفة المثقّف العضوي على كل من يندمج في مشاكل عصره، ويذهب في تعريفه للمثقفّ العضوي على "أساس المكانة والوظيفة التي يقوم بها هذا المثقفّ داخل البنية الاجتماعيّة ونظام علاقاتها الاجتماعيّة"⁽¹²⁾، وهو ما يجعله بهذه الصّفة حاملاً لمشاكل عصره ومضطرباً بهموم وانشغالات أفراد نسقه السوسيوثقافي.

4- خلفيات وآليات توظيف ابن خلدون للملاحظة في مقدّمته:

على اعتبار أنّ مقدّمة ابن خلدون قد سبقت بتدوينه لأجزاء من كتاب العبر، " ذلك أنّه من المعلوم أنّ ابن خلدون قد ألّف الأجزاء التّاريخيّة لكتاب العبر قبل كتابة المقدّمة"⁽¹³⁾، ولذا فمن المنطقي أن تكون قراءاته ومراجعاته لأفكاره ضمن أجزاء كتابه - العبر - قد وفّرت له هامشاً واسعاً لإمكانيّة توظيف الملاحظة أثناء صياغته لأفكار المقدّمة، ومن هنا يبدو أنّ تشبّعه بالمعرفة التّاريخيّة من جهة وتعامله مع مختلف الأحداث والإشكاليّات السّابقة والمعاصرة له، وما انطوت عليه من أبعاد وملابسات ذات صلة بسياقات فكريّة وحضاريّة خلال تدوينه لأجزاء العبر، قد أفضت به -ابن خلدون- إلى إدراك واستنتاج أفكار ورؤى جديدة بنيت على الملاحظة الدّقيقة والواعية، حول الأبنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة والأنساق الثقافيّة في تفاعلها مع الأحداث التّاريخيّة والرّاهن السّياسي، وما تفرزه من ممارسات وتمثّلات وأنظمة علائقيّة جديدة ذات صلة بالحراك الاجتماعي في عالم متغيّر وغير ثابت.

حيث طَعَم ابن خلدون ما حصل عليه من مادّة خبريّة حول المجتمعات التي كانت مجالاً لدراساته بمهارة فائقة في التحليل، فهو وفق هذا المنحى يذهب إلى الاعتماد على معلومات ومعطيات تاريخيّة وافرة ثمّ يسعى إلى إثبات مصداقيّتها، وهذا بتبرير وجهة نظره محاولاً تأكيدها عن طريق حشد مجموعة من الحجج والمبررات الحاضرة للعيان عبر الملاحظة، وهو بهذا لكي يعضد ملاحظته العميقة والثاقبة يغترف من الخطاب القرآني حتّى يكون سنداً له، إذ نراه يجتهد في انتقاء الآيات التي تناسب ما يخدم سياق حديثه.

فقد تضمّنت مقدّمة ابن خلدون مجموعة من العبارات التي تكرّرت باستمرار وفي مواضع كثيرة، والتي توحى بتوظيفه لأداة الملاحظة في رصد الظواهر السّوسيو ثقافيّة، كما توحى من جهة أخرى بحرصه الهادف إلى التأكيد على مصداقيّة الحدث المنقول وعمق الرّويّة، هذه العبارات من قبيل أنظر، أعلم، وهكذا... وغيرها من العبارات الأخرى التي تنطوي على نفس الدلالات، وهو ما يوحي بخصائص الأصالة والتحليل والمهارة لديه، ولذا فإنّ ابن خلدون قد مارس دوره جيّداً وكانت لتحليلاته حول المجتمعات المغاربيّة على وجه الخصوص حدّاً أدنى من العمق، لكونه أخذ جميع الجوانب والعناصر الفاعلة في الظاهرة السّوسيوثقافيّة بعين الاعتبار.

إنّ الحمولة المعرفيّة التي يحوزها المنجز العلمي الخلدوني مُمثّلاً في المقدّمة بإمكانها أن تُشكّل على الأقلّ أرضيّة نظريّة للنّهوض بالأبحاث السّوسيوولوجيّة والأنثروبولوجيّة في البلدان العربيّة، التي يشكو فيها المهتمّون بهذه العلوم من ضعف الزّاد المنهجي والتّنبّيري من جهة، وعدم ملائمة المناهج والنظريّات الغربيّة لدراسة الواقع المحليّ من جهة ثانية، وضمن هذا السّياق يمكن إدراج شهادة الأنثروبولوجي الأمريكي كارلتون.س.كون الذي يفترض " أنّ العرب سيجدون تحليل المواد الأنثروبولوجيّة مألوفاً لهم، فابن خلدون في مقدّمته قد حلّل البناء الاجتماعي لقبائل الصّحراء، والبناء الاجتماعي للمدن تحليلاً عميقاً، وقد أدرك ما لم يدركه معظم العلماء المتأخّرين من أنّ بين البيئّة وطرق المعيشة الإنسانيّة والبناء الاجتماعي علاقة سببيّة" (14).

ومن هذا المنطلق ليس غريباً أن تكون لتحليلات ورؤى ابن خلدون تأثيرات فيما جاء من بعده من بحوث ودراسات، بفعل ما تميّزت به من خصوصيّات معرفيّة أتاحت إمكانيّة

الاعتماد عليها كأرضية لبعض الفرضيات والاستنتاجات المُسبقة حول الفضاء الاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي كانت محورا للقراءات الخلدونية، ومع ذلك فإن آراء ابن خلدون لا يُمكن تعميمها أو تطبيق نتائجها بشكل مطلق دون تحييص أو حذر في الأخذ بفرضياتها.

5- أوجه وسياقات توظيف ابن خلدون للملاحظة في مقدّمته:

لقد وظّف ابن خلدون الملاحظة في مقدّمته وفق صيغتين أساسيتين وهما الملاحظة بشكل ضمني، والملاحظة بشكل صريح، وبالنظر إلى ما تحوزه المقدّمة من آراء وأفكار كثيرة ومتشعبة في مختلف المجالات ممّا جعلها تتميز بالثراء والتنوّع في مواضيعها، فإنّ محاولتنا لرصد أوجه وسياقات توظيفه للملاحظة، سوف نقصّها على جملة من القضايا التي نلمس فيها توظيف ابن خلدون لهذه الأداة المنهجية بشكل لافت وفق الصيغتين المذكورتين آنفاً، والتي ندرجها ضمن العناصر الآتية:

أولاً- توظيف ابن خلدون للملاحظة بشكل صريح:

أ- في مسألة التقليد والتشبه:

لقد أدرك ابن خلدون من خلال إمعان النظر والتأمّل عن طريق الملاحظة القانون الذي يحكم العلاقة بين الغالب والمغلوب والذي يُفضي إلى التقليد والتشبه، فراه في هذه الحالة لا يتّخذ موقفاً ينطلق من نسقه القيمي بالحكم على ظاهرة التقليد والتشبه بالسلب أو الإيجاب، بل تعامل معها كظاهرة اجتماعية يمكن حدوثها في كل زمان ومكان إذا توفّرت الشروط التي تحكمها، حيث رأى أنّ العلاقة بين الغالب والمغلوب إنّما تقوم على قاعدة الغلبة المعنوية أكثر ممّا هي غلبة مادية، من خلال اعتقاد المغلوب الكمال في الغالب، فهو يقول " والسبب في ذلك أنّ النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه..." (15).

ويعمل ابن خلدون فيما يتصل بهذه المسألة على تأكيد وجهة نظره من خلال الملاحظة بتوظيفه للفعل المضارع " ترى " مرّة واحدة بقوله "ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب" (16)، ووظّف فعل الأمر " وانظر " مرتين، فيقول " وأنظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلّا لاعتقادهم الكمال فيهم" (17)، " وأنظر إلى

كل قطر من الأقطار كيف يَغْلِبُ على أهله زِيُّ الحامية وجند السلطان في الأكثر لأنهم الغالبون لهم" (18)، ووظف اسم الفعل " النَّاظر " مرّة واحدة حين أشار إلى مثال واقعي وظاهر للعيان في زمنه حول التّقليد والتّشبّه بقوله "كما هو في الأندلس لهذا العهد...حتّى لقد يستشعر من ذلك النَّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء" (19).

ب- في مسألة تخطيط العرب للمدن:

أكّد ابن خلدون أنّ اختطاط العرب للمدن لم يخضع لرؤى استشرافية مستقبلية، ولا لمخطّطات تراعي التّقلّبات السّياسيّة والاقتصاديّة وما ينجم عنهما من تداعيات وآثار مباشرة على الفضاء السّكني، وهذا من خلال إمعانه النّظر عن طريق الملاحظة إلى ما آلت إليه المدن التّاريخيّة الأولى التي بناها المسلمون زمن الفتح وبعده بقليل، إذأنّهم افتقدوا إلى الخبرة في تشييد المدن واختطاطها لبعدهم عن أسباب الحضارة بحكم بداوتهم، حيث يقول " والسّبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصّنائع كما قدّمناه" (20)، كما لم يخرج تعامل العرب مع المدن من تخطيط وبناء وتوسعة عن سياق نسقهم الاقتصادي وبيئتهم الفكرية البدويّة وفق رأيه، ولاشك أنّ ذلك كانت له تداعيات سلبية مباشرة على ما بنوه من مدن كالبصرة والكوفة والقيروان، هذه الأخيرة التي سرعان ما فقدت مكانتها وتضاءلت تأثيراتها وتراجعت عن أداء الأدوار التّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة المنوطة بها.

ولتأكيد حجّته في ذلك يستعمل فعل " أنظر " مرّة واحدة، حيث يقول " وأنظر لما اختطّوا البصرة والكوفة والقيروان كيف لم يُراعوا في اختطاطها إلّا مراعي إيلهم وما يقرب من الفقر ومسالك الظّن" (21)، وهذا بعكس الأدوار التي اضطلعت به بقيّة المدن التّاريخيّة الأخرى عند نظرائهم في الشّرق والغرب، بما امتلكوه من خبرات وتجارب في اختطاط المدن، الأمر الذي ضمن لهذه المدن البقاء، من خلال القيام بأدوار تاريخيّة ومواكبة التّحوّلات المختلفة والصّمود أمام التّغيّرات المصاحبة لتغيّر وتبدّل أنظمة الحكم.

ج- في مسألة الشدّة على المتعلّمين ونتائجها على العمليّة التّعليميّة:

لامس ابن خلدون من خلال ملاحظاته المباشرة المنطلقة من تأمّله العميق لواقع التّعليم، ومن خلال اتّكائه على بعض الشّواهد التّاريخيّة التي انتقاها بعناية فائقة، واحدة من

المسائل المفصلية ذات النتائج السلبية على العملية التعليمية بوجه عام وشخصية المتعلم بوجه الخصوص، وذلك بإثارة إشكالية المضار الناتجة عن سلوك الشدة على المتعلمين، حيث انطلق ابن خلدون في مناقشة حيثيات هذه المسألة الهامة والوقوف على ملاساتها من فكرة يقينية بناها على ملاحظاته، مستعملاً في هذا السياق عبارة التأكيد "أن" بقوله " وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مضرٌ بالمتعلم سيما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة" (22).

وبعد ما عدّد ابن خلدون نتائج الشدة على المتعلمين والتي رأى أنها لا تخرج عن كل ما هو ضار وغير سوي، من ضيق وخمول وتظاهر بغير ما في النفس ومكر وخديعة وفساد معاني الإنسانية واكتساب الفضائل وغيرها، أردفها بنتيجة رأى إمكانية تعميمها على كل الأمم التي مورست عليها الشدة وما يرافقها من ممارسات قريضة بها فيقول " وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف" (23)، وهنا تكمن قوة الملاحظة وفعاليتها في رصد آثار الشدة على المتعلمين ومضارها المباشرة وغير المباشرة على الأفراد والجماعات والأمم.

ولعلّ ما يلفت الانتباه في توظيف ابن خلدون للملاحظة بصيغتها المباشرة عادة هو إعطاؤه لأمثلة دقيقة لتدعيم حجّته فيما ذهب إليه من آراء ومواقف، ولذا نراه في مسألة نتائج الشدة على المتعلمين يستشهد باليهود محاولاً توجيه القارئ لملاحظة ذلك في سلوكهم، لما وقع عليهم عبر مذهبهم في التعليم وفق وجهة نظره من صنوف العسف والقهر والشدة، وهذا باستعمال العبارات المعهودة لديه في هذا الشأن ومنها في هذا الموضع "وانظره"، إذ يقول " وأنظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم... وسببه ما قلناه" (24)، وينهي ابن خلدون مناقشة هذه المسألة بانتقاء أمثلة من التراث الحضاري الإسلامي، رأى أنها ذات فائدة في طرق التلقين والتعامل مع المتعلمين (25).

ثانياً- توظيف ابن خلدون للملاحظة بشكل ضمني:

أ- في مسألة العلاقة بين البيئات المناخية وألوان وأمزجة وطباع ساكنيها:

حاول ابن خلدون مناقشة إشكالية تأثير البيئات المناخية على ألوان وأمزجة وطباع ساكنيها، بتعليل أسباب ذلك من خلال حشد مجموعة من الأمثلة التي تخدم السياق

المراد⁽²⁶⁾، وهذا ما يمكن إدراجه في الزّمن الرّاهن ضمن ما يُسمّى بتخصّصات علم اجتماع البيئة، والجغرافيا البشريّة وكذلك أنثروبولوجيا البيئة وفق تسميات العلوم الحديثة، فنرى ابن خلدون يَعرِّف من التّاريخ والجغرافيا بغرض بناء استنتاجات حول هذه المسألة، ثم يدعّمها بتوظيف أداة الملاحظة بشكل ضمني، بإعطاء أمثلة واقعيّة ذات صلة بهذه الإشكاليّة مستخدماً ألفاظ "تري" و"أينا" و"تجد" و"تجد".

ومثال ذلك فيما نذهب إليه حول هذه المسألة إشارته إلى أثر الهواء على أخلاق البشر، أنّه-ابن خلدون- يقرن السّود بسلوك الخفّة والطّيش وكثرة الطّرب، وما ذلك حسب رأيه إلّا بسبب بيئتهم الحارّة حيث يقول "ولمّا كان السّودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحرّ على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم... أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطا ويجبى الطّيش على أثر ذلك⁽²⁷⁾، وبالعكس ما يميّز السّود من طباع ذات صلة ببيئتهم الحارّة فإنّ أهل فاس يتميّزون بجملة من الطّباع لا تخرج عن تأثير بيئتهم أيضا، حيث يقول "ولمّا كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التّوغلّ في التّلؤل الباردة كيف ترى أهلها مُطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب"⁽²⁸⁾.

ب- في مسألة اللّغة واكتسابها وتداولها:

ليس من قبيل القفز بنصوص المقدّمة عن سياقها التّاريخي بملاساته الاجتماعيّة والثّقافيّة، إذا اعتبرنا أنّ ابن خلدون من خلال توظيفه للملاحظة بشكل ضمني في مناقشته لمسألة اللّغة من حيث اكتسابها وتداولها، قد لامس بالفعل أحد بؤر التّفكير المعاصرة التي تمثّل حقل اشتغال هام ضمن ما يُعرف بعلم اجتماع اللّغة، وكذا الأنثروبولوجيا اللّغويّة، فنراه يستند إلى جملة من المحدّدات المهمّة ذات الصّلة بالمسألة اللّغويّة بأبعادها الاجتماعيّة والجغرافيّة دون إغفال الأبعاد التّاريخيّة كفاعل أساسي في هذه المسألة، حيث يعتمد إلى استحضار عنصر جوهرى يرتبط باكتساب اللّغة مُثّلا في الممارسة المستمرّة لها معتبرا إياها ملكة، ولا يستثني من هذا لغة دون أخرى بل أنّ الأمر ينطبق على جميع اللّغات.

إذ يقول "اعلم أنّ اللّغات كلّها ملكات شبيهة بالصّناعة"⁽²⁹⁾، وهو بهذا يُشعرنا بأنّ اللّغة هي ظاهرة اجتماعيّة وفق منطق العلوم المعاصرة كعلم اجتماع اللّغة والأنثروبولوجيا

اللغوية وليست مسألة فطرية كما كان يُعتقد، فنراه يوظف ملاحظاته الضمنية لبنى عناصر ارتكاز لتدعيم وجهة نظره في هذا الشأن، من خلال إعطاء أمثلة واقعية فيقول "كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لايزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم" (30).

ولا يقف ابن خلدون في نقاشه لمسألة اللغة واكتسابها وتداولها، عند مستوى اعتبارها ظاهرة اجتماعية كما أسلفنا، بل لامس من خلال ملاحظاته الضمنية وعمق الإمعان في النظر نتائج ما يحدث بين اللغات من تلاقي وامتزاج وتداخل (31)، وكيف تغلب لغة على لغة أخرى أو تمتزج بها، والتي رآها لا تخرج عن سياق الغالب والمغلوب والمهيمن والمهيمن عليه، فهو في هذا يُقرن تلاشي الدولة وزوال ملكها بوقوعها في أيدي غيرها بزوال لغة أهلها وحلول لغة الآخر المهيمن، ضارباً مثلاً باللغة العربية فيقول "...حتى تلاشي أمر العرب ودُرس لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملك في أيديهم والتغلب لهم" (32).

ج- في مسألة أعمار الدول:

لقد طعم ابن خلدون رؤاه وتحليلاته في مسألة أعمار الدول ضمن ما يمكن تسميته بالدورة الحضارية، من خلال توظيفه الملاحظة الضمنية وكذا بالبحث عليها للقارئ لأفكاره، حتى يتمثل بعين العقل مراحل تلك الدورة الحضارية والأطوار التي تمر بها البداوة نحو الحضارة ثم الانتكاس وهكذا، فهو يرى أن للدول أعمار شأنها شأن البشر وأن مبدأها البداوة ومنتهاها الحضارة، إذ يقول "وأن الحضارة غاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً" (33).

إذ يبدو من خلال إمعان النظر في مسألة أعمار الدول أن ابن خلدون أمكن له عن طريق الملاحظة الضمنية من اكتشاف وضبط النواميس العامة والوقوف على السنن التي يمكن اعتبارها بمثابة قواعد ثابتة، حول مسألة قيام الدول وما يرتبط بها من نتائج فكري وحضاري متنوع يعكس الازدهار والتطور، وكذا ما يصيبها من انتكاسات وأفول من خلال الضمور التدريجي، وهو في هذه المسألة وعلى غير ما ألفناه منه لم يوظف التاريخ

ولم يُعرف من معينه بغية إعطاء شواهد من أحوال الأمم الماضية لتدعيم حجته، بل غرف من الخطاب القرآني مستشهدا بالآية السادسة عشر من سورة الإسراء⁽³⁴⁾، والتي رأى أنها تخدم سياق ما أراد أن ينتهي إليه من نتائج ذات صلة مباشرة بفكرته⁽³⁵⁾.

فقد استحضر مجموعة من الظواهر والسلوكات التي تميّز الأفراد والجماعات في كل طور من أطوار الدولة، وسعى إلى المناقشة السوسيولوجية العميقة لها، شارحا ومحلّلا للخلفيات والعوامل الموضوعية التي تحكم السلوك المجتمعي في كل طور من هذه الأطوار بعقل الناقد، وبعين الملاحظ والناظر المدقّق في الكليات كما في الجزئيات⁽³⁶⁾.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث الموسوم "السِّبْق المنهجي لدى ابن خلدون من خلال توظيف أداة الملاحظة لرصد الظواهر الاجتماعية"، يمكن أن نخلص إلى جملة من الاستنتاجات نرى إمكانية استعراضها على النحو الآتي:

- لقد فتح لنا هذا البحث بؤر نقاش وتفكير جديدة ذات صلة بمسألة توظيف ابن خلدون للملاحظة، والتي تحتاج إلى بحث موسّع، يأخذ بعين الاعتبار جميع العناصر والأفكار الواردة في المقدمة، وهذا بالنظر إلى ما تعجّ به هذه الأخيرة من أفكار ورؤى متشعبة شملت جملة من العلوم والمعارف، والتي يبدو من المتعذّر مُلامسة جميع العناصر التي وظّف فيها الملاحظة بصيغتيها الصريحة والضمنية في عدد محدود من الصفحات.

- إنَّ الرّؤى والأفكار التي صاغها ابن خلدون لا يمكن عزلها بأيّ حال عن السِّياق الفكري والحضاري الذي عاش فيه، والذي كانت له تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على نسقه الفكري وعلى نظريته لمجتمعات عصره وبيئته.

- لا يمكن أن ندّعي في هذا البحث أنّ ابن خلدون وظّف الملاحظة بوصفها من أدوات المنهجية المعتمدة في البحوث الأنثروبولوجية والاجتماعية وفق ما تقتضيه التقاليد المنهجية المعاصرة، إذ يجب الأخذ بعين الاعتبار تلك المسافة الزمنية الفاصلة بين زمن ابن خلدون والزمن الحاضر الذي نضجت فيه منظومة النظريات السوسيو أنثروبولوجية وتبلورت معالمها الأساسية.

- لا يمكن بأيّ حال من الأحوال إنكار جهود من سبقوا ابن خلدون وأسهموا في عملية

المراكمة للتراث الفكري، فليس غريبا أن يجد المتصفح لأفكار ابن خلدون الواردة في مقدماته التراث التنظيري لمن سبقوه حاضرا بشكل مباشر وغير مباشر، وهي سمة ملازمة لجميع العلوم والمعارف على مر التاريخ والتي تخضع لمبدأ البناء والتراكم.

المراجع:

¹ - كشير خالد: في التعامل مع المفاهيم الخلدونية اليوم، ندوة الأنثروبولوجيا التاريخية المكتسبات والآفاق، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، الصادرة ضمن سلسلة الأنثروبولوجيا-الإثنولوجيا، عدد 3، 2010، ص 48.

² - جغلون عبد القادر: الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1971، ط2، ص 9.

³ - يفوت سالم: ابن خلدون وحدود التأويل، ندوة الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق بناصر البوعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2007، ط1، ص29.

⁴ -Auzias, jean- marie: *l'anthropologie Contemporaine*, Puf, Paris, 1976, 1^{er} édit, p 69.

⁵ - أنجرس موريس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية -تدريبات عملية-، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، مراجعة مصطفى

ماضي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ط2، ص 184.

-Lombard jaque: *Introduction à l'ethnologie*, Armand Colin, paris, 1999, p 15-16.

⁷ - أنجرس موريس: مرجع سبق ذكره، ص 185.

Beitone, Alain Et Autres : *Science Sociales*, Dalloz, Paris, 2002, 3^e édit, p 26-27.

⁹ - أنجرس موريس: مرجع سبق ذكره، ص 190.

¹⁰ -المرجع السابق نفسه: ص 190.

¹¹ -المرجع السابق نفسه: ص 191.

¹² - بلحسن عمار: أنتلجنسيا أم مثقفون، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ط1، ص36

¹³ - الذواوي محمود: المرجع السابق، ص85.

¹⁴ -كارلتون.س.كون: أنثروبولوجيا للعرب، مؤتمر الثقافة الإسلامية المنظم بجامعة برنستون،

جمع وتقديم خلف الله محمد، الصّادر ضمن كتاب الثّقافة الإسلاميّة والحياة المعاصرة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، 1962، ط2، ص301.

¹⁵ - ابن خلدون: المقدّمة، ضبط وشرح وتقديم محمّد الإسكندراني، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004، ص 146.

¹⁶ - المصدر السّابق نفسه، ص 146.

¹⁷ - المصدر السّابق نفسه، ص 146.

¹⁸ - المصدر السّابق نفسه، ص 146.

¹⁹ - المصدر السّابق نفسه، ص 146.

²⁰ - المصدر السّابق نفسه، ص 334.

²¹ - المصدر السّابق نفسه، ص 334.

²² - المصدر السّابق نفسه، ص 496.

²³ - المصدر السّابق نفسه، ص 496.

²⁴ - المصدر السّابق نفسه، ص 496.

²⁵ - المصدر السّابق نفسه، ص 496.

²⁶ - المصدر السّابق نفسه، ص ص 85 - 87.

²⁷ - المصدر السّابق نفسه، ص 89.

²⁸ - المصدر السّابق نفسه، ص 89.

²⁹ - المصدر السّابق نفسه، ص 508.

³⁰ - المصدر السّابق نفسه، ص 508.

³¹ - المصدر السّابق نفسه، ص 512.

³² - المصدر السّابق نفسه، ص 517.

³³ - المصدر السّابق نفسه، ص 345.

³⁴ - المصدر السّابق نفسه، ص 346.

³⁵ - سبق وأنّ أشرنا أنّ ابن خلدون يعترف من الخطاب القرآني حتّى يكون سنداً له، إذ نراه يجتهد في انتقاء الآيات التي تناسب ما

يخذه في سياق حديثه، أنظر: - خلفيات وآليات توظيف ابن خلدون للملاحظة في مقدّمته، ضمن هذا البحث.

³⁶ - ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، ص ص 345-346.